البابُ الثامنُ والعشرون

في ذِكْرِ خُطَبِ الملوكِ عند الفتوحِ، وبلاغتُهم مع الوضوحِ

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾(1).

قال الحسنُ البصريُّ: طلبتُ خطبةَ رسولِ الله ﷺ التي كان يخطب بها كل جُمُعةٍ، أربعَ سنين، فلم أقدرْ عليها، حتى بلغني أنها عندَ رجلٍ من الأنصار، فقلت له: أنتَ سمعتَ خُطبةَ النبيِّ ﷺ التي كان يخطب بها كل جمعة، قالَ: نعمْ، سمعتُه يقولُ: الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ كثيراً، وصلواتُ اللهِ على جميعِ الأنبياء والرسل، وعلينا معهم برحمته، أيُّها الناسُ؛ إنَّ لكم معلماً فانتهوا إلى مَعْلَمِكُم، وإنَّ لكمْ نهايةً فانتهوا إلى نهايتكم، فإن المرءَ بين مخافتين؛ بينَ أجلٍ قد مضى لا يدرِي ما اللَّهُ صانعٌ فيه، وبينَ أملٍ قد بقيَ لا يدري ما الله قاضٍ فيه، فليتزود العبدُ من نفْسِه لنفْسِه، ومن دنياه لآخرتِهِ، ومن حياتِهِ لموتِهِ، فإنَّ الدنيا خُلِقتْ لكم، وأنتم خُلقتمْ للآخرةِ، والذي نفْسُ محمدٍ بيدهِ ما بعدَ الموتِ مُسْتَعْتَبٌ، ولا بعدَ الدنيا دارٌ إلا الجنة أو النار.

أقولُ قولي هذا، وأستغفرُ اللَّهَ لي ولكم.

قال جابر: إن زاد زاد قليلاً وإن نقصَ نقصَ قليلاً.

(1) الأنبياء: الآيتان (106 - 107).

ولمّا قُتِلَ مصعبُ بنُ الزبيرِ، وبلغ أخاه عبدَاللّهِ بنَ الزبيرِ، وهو بمكةَ، صَعَدَ المنبرَ فقال: الحمد للّهِ الذي له الخلقُ والأمرُ تؤتي الملك من تشاء، وتَنْزِعُ الملكَ ممَّنْ تشاءُ وتعزُّ من تشاء، وتذِلُّ من تشاء، ألا وإنه لمْ يذللِ اللّهُ من الحقُّ معه وإن كان فرداً، ولم يُعْزِزِ اللّهُ مَنْ أولياءُ الشيطانِ حزبُه، وإن كان الأنامُ معه طراً، ألا وإنه أتانا خبرٌ من العراقِ أجزعَنا وأفرحنا؛ قَتْلُ مصعبٍ رَحِمَه اللّهُ، فالذي أجزعنا من ذلك أن لفراقِ الحميمِ لوعةً، يجدها حميمُه عند المصيبةِ به، ثم يرعوي من بعدِها إلى جميلِ الصبرِ؛ وكريمِ العزاءِ، وأما الذي أفرحنا؛ فإنه قدَ عَلِمْنا أنَّ قتلَه شهادةٌ، وأنَّ القتلَ على ذلك لنا وله خِيرَةٌ، ألا وإنَّ أهل العراقِ -أهلَ الغدرِ والنفاقِ- أسلموه، وباعوه بأقلِّ ثمنٍ كانوا يجدونه.

إنَّا واللّهِ لا نَموتُ جنحاً، ولا نموتُ إلا طعناً بالرماح، وقتلاً تحت ظلال السيوف، لا كما يموتُ بنو مروان، ما قتل منهم رجلٌ في جاهليةٍ ولا في إسلام، وإنما الدنيا عاريةٌ من المَلِكِ الأعلى، الذي لا يزولُ سلطانه ولا يبيدُ، فإنْ تُقْبِلِ الدنيا علي فلا آخذُها أخذَ الأشِرِ البَطِرِ، وإنْ تُدبِر الدنيا لا أبكي عليها بكاءَ الحرفِ المهر، ثم نزل.

قال: ولما فتحَ يزيدُ بنُ المهلبِ الفتوحَ، صعَدَ المنبرَ، فحمِدَ اللّه، وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد؛ فالحمدُ للّه الذي كفانا بالإسلامِ فَقْدَ ما سواه، وجعلَ الحمدَ متصلاً بنعمائه، وقضى ألّا ينقطعَ المزيدُ من فضلِه حتى ينقطعُ الشكرُ من خلقه، ثم إنّا وعدوَّنا على حالين مختلفين، فنرى فيهم ما يسرّنا أكثر مما يسؤنا، ويرون فينا ما يسؤهم أكثر مما يسرهم، فلم يزلِ اللّه يُمحِّصُنا ويمحقُهم، وينصرُنا ويخذلُهم، حتى بلغ بنا وبهم الكتابُ أجلَه، ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾[1].

(1) الأنعام: الآية (45).

الحكاية

حكـي: عن الشعبيِّ أنه قال: سمعتُ مـن عبدِالملك بنِ مروانَ كلمةً على المنبرِ، حسدتُه عليها سمعتُه يقولُ: اللهم إن ذنوبي كَثُرتْ وجلَّتْ عن الصفة اللهمّ إنها صغيرةٌ في جنبِ عفوكِ فاعفُ عني.

obeikandl.com